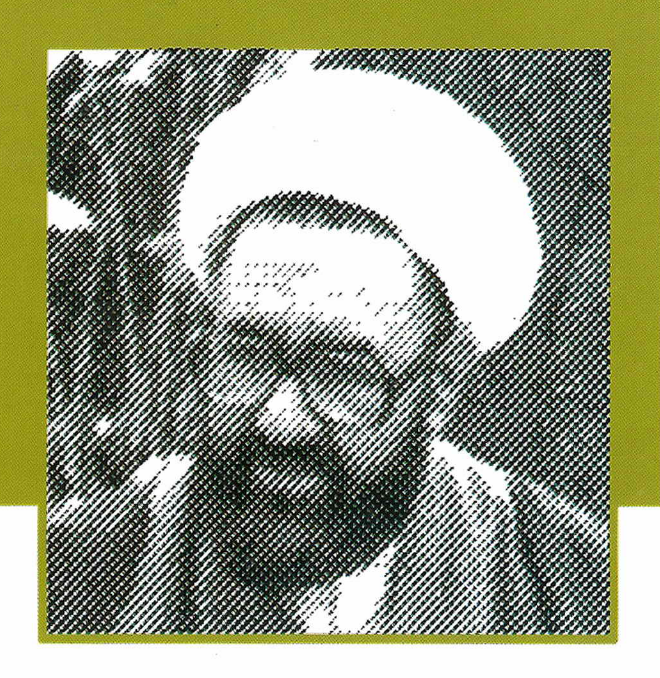
الإمداد الغيبي في حياة البشريّة

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهَرى



ترجمة:
أ.د. محمد على آذرشب
جامعة طهران

الإمداد الغيبي

في حياة البشريّة

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهّري

ترجمة وتقديم

أ.د. محمد علي آذرشب

جامعة طهران



سرشناسه	: مطهری، مرتضی، ۱۲۹۹ - ۱۳۵۸.
عنوان قراردادی	: امدادهای غیبی در زندگی بشر. عربی.
عنوان و نام پدیدآور	: الامداد الغیبی فی حیاةالبشریه/مرتضی مطهری ؛ ترجمه و تقدیم محمدعلی آذرشب.
وضعیت ویراست	: [ویراست ۳]
مشخصات نشر	: تهران: به‌اندیشان، ۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری	: [۶۴] ص.
شابک	: 978-600-90178-1-2
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا
یادداشت	: عربی.
عنوان دیگر	: امدادهای غیبی در زندگی بشر.
موضوع	: نصرت‌الهی.
شناسه افزوده	: آذرشب، محمدعلی ، مترجم و مقدمه‌نویس.
رده بندی کنگره	: BP۲۱۹/۸/م۶الف۴۳۸۰۴۳ ۱۳۸۷
رده بندی دیویی	: ۲۹۷/۴۶۸
شماره کتابشناسی ملی	: ۱۲۴۵۳۰۲

الإمداد الغيبي في حياة البشريّة

الكاتب: الاستاذ الشهيد مرتضى مطهري

المترجم: الدكتور محمد علي آذرشب

الناشر: به اندیشان

تصميم الغلاف: داود یاراحمدی

العدد : ٥٠٠٠ نسخه

الطبعة: الاولى

شابک: ٢-١-٩٠١٧٨-٦٠٠-٩٧٨

الطباعة والتجليد: مجتمع چاپ نقشینه پیمان

السعر: ٣٥٠٠ تومان -5$ - 1.5KD

تلفون مركز التوزيع: ٠٠٩٨٩٣٦٠٥٥٩٤٣٠-٠٠٩٨٢١٢٢٨٥١٠٩٣

مقدمة نجل الشهيد مطهري

الفيلسوف العارف والفقيه الفاضل الأستاذ العبقري الشهيد مرتضى مطهّري (رضوان الله تعالى عليه) هو من نوابغ الدهر ونوادره، وغيابه ترك فراغًا كبيرًا في دراسات الحوزات العلميّة الدينيّة والجامعات والعلوم الإنسانيّة.

وُلد في فبراير (شباط) عام ١٩١٩م في مدينة «فريمان» التابعة لمحافظة خراسان في أسرة دينيّة . أنهى دراسة المقدّمات في حوزة مشهد المقدّسة عام ١٩٣٧م، ثم هاجر إلى مدينة قم المقدّسة وحوزتها العلمية لمواصلة دراسة العلوم الدينيّة ، ونبغ بسرعة، فكان عمره القصير حافلاً ومباركًا؛ إذ خلّف آثارًا قيّمة ونفيسة قبل أن يلبّي نداء ربّه ويُرزق الشهادة في الأوّل من أبريل (نيسان) عام ١٩٧٩م.

لقد كان الأستاذ الشهيد معلّمًا حنونًا يحمل آلام المجتمع وهمومه، واستطاع بقلمه الرائع الذي يحمل أنفاسًا قدسيّة

أن يمنح النور للنفوس ويدعوها إلى الحياة الطيّبة، فلقد ارتوت روحه السامية من ينبوع العرفان وأسرار الوحي والحكم المعنويّة المتعالية، وتعامل مع التعليم والتأليف والوعظ والخطابة تعامل العاشق.

الحرقة التي تحملها أحاديثه وآثاره أثّرت في النخبة و عامة الناس على السواء، اذ انبعثت من قلب عاشق لا يعرف التفاخر ولا التظاهر.

تأثّر (رحمه الله) بأساتذته، ولاسيما الإمام الخميني والعلاّمة الطباطبائي (رضي الله عنهما) .

هذه الحقيقة تظهر جليّة في آثار العلاّمة الشهيد، فهو إذا ذكر أستاذه العلاّمة الطباطبائي قال: «روحي فداه»، وإذا ذكر أستاذه الإمام الخميني عبّر عنه بـ «الروح القدسيّ».

وبسبب ما استلهمه من هذين الاستاذين كانت له عناية خاصّة بتهذيب النفس والمراقبات الروحيّة، إلى جانب تعمّقه في العلوم. فكان من خصائص سلوكه: البكاء والمناجاة في الأسحار، وذكر الله على كلّ حال، والابتعاد عن أهل الدُّنيا، والارتباط بأصحاب الهموم الكبيرة، والاهتمام الجادّ بالقرآن وبمدرسة العرفان.

لقد كان مصداق الآية الكريمة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢) ومثالاً عمليًّا في الاستجابة لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٤).

كان (رحمه الله) كأساتذته من الأمثلة البارزة لرجال الإحياء الديني ، في القرن الخامس عشر الهجري، بل يمكن مقارنته بالإمام محمّد الغزالي أو الخواجة نصير الدِّين الطوسي، فلقد واءم بين الدين والفلسفة، والدِّين والعلم، والدِّين والفنّ، والدِّين والمجتمع، والدِّين والسياسة، والدِّين والعلوم الإنسانيّة، والدِّين والأدب، والدِّين وعلم النفس، وأزال القطيعة التي حدثت منذ عصر النهضة فلاحقًا بين هذه المفاهيم وبين الدِّين في العالم الجديد، وخلق نوعًا من المصالحة والانسجام بينها.

إنّ أهمّ خصيصة لمؤلّفات الشهيد: البيان العقلي والفلسفي (البرهاني)، لكنه ربط جوهر الدِّين بالحكمة الذوقيّة والإشراقيّة لاسيما الحكمة المتعالية، فعدّ العلم اللدنيّ والباطني (العرفان) من الأُسس المعرفيّة، ومن ثمّ فهو

كان يرى روح الحكمة المتعالية في النور والعرفان الإلهي. إنّه بيّن الأدب العرفاني والإنساني، خاصّة عرفان حافظ ومولانا وابن الفارض، على أساس مبادئ الحكمة المتعالية وعرفان محيي الدِّين بن عربي، ولهذا كان يرى أنّ الأدب العرفاني هو أفضل طريق لفهمٍ أدقّ للحكمة الذوقيّة.

من الخصائص الذاتيّة للشهيد: ذكاؤه المتوقّد بالقريحة والذوق العلمي الرفيع، وتحليه بالحكمة، والنفس الأبيّة الطاهرة، والفطرة النورانيّة، والروح العلميّة الموضوعيّة الباحثة عن الحقيقة، والرافضة لكلّ أشكال التعصّب والجمود، والإنصاف بين الحقائق العلميّة والدينيّة، وكذلك تنوّع آثاره وأفكاره في مجالات العلوم الإنسانيّة المختلفة، واتّصاف قلمه بالسلاسة المحبّبة التي تدلّ على موهبة فطريّة.

من وجهة نظره: الدِّين ينتج ثقافة.. ثقافة حيّة فاعلة، والدين عامل أيديولوجي وماورائي ينطوي على حياة هادفة. المقصود بالعامل الايديولوجي هو نفس الحكمة الإلهيّة والعرفان ونفس انبعاث الروح الإلهيّة للإنسان والصيرورة في مسير الجذبة والعشق الإلهي والتكامل الإنساني. ومن ثمّ فالدِّين ـــ في رأيه ـــ ليس مجموعة من

السنن والآداب والعادات والعقائد المجـرّدة مـن الـروح والبعيدة عن المنطق، فالأنبياء بُنـاة ثقافـة في الأسـاس، وبعملهم هذا يخلقون الأرضية للحضارة والمدنيّـة كمـا شهدنا ذلك في الازدهار الحضاري الإسـلامي خـلال القرنين الأوّل والثاني للهجرة.

من الخصائص الأخرى للأستاذ الشهيد وآثاره: البحث في المعارف والعلوم المقارنة لاسيما الفلسفة المقارنة، وهو ما يلاحظ جيّدًا في هوامش وتعليقات كتابيـه: «أُسـس الفلسفة والمنهج الواقعي» و «شرح المنظومة». فقد قـدّم الشهيد المعارف الإلهيّة من خلال فلسفة صدر المتـألّهين الشيرازي، مع عدم إغفاله الفلسفة والأفكـار الغربيّـة، وكذلك الفلسفة المادّية، ونقده للآراء الجديدة في العالم.

هذه الخصيصة لا تنحصر بالحكمة أو الفلسـفة بـل تشمل سائرفروع العلوم الانسانية مثل الاقتصاد وفلسـفة الأخلاق وفلسفة التاريخ وعلم الكلام والقانون وغيرها.

لقد كان للأستاذ الشهيد نظرة حكيمة ورؤية واعيـة تميَّز بها في «علم نفس المـرأة» ونظامهـا الحقـوقي في الإسلام، وأولى اهتمامًا ملحوظًا بقضاياها وحقوقهـا في

العالم المعاصر.

امتازت لغة الشهيد مع الجيل المعاصر بكونها لغة جميلة وجذّابة مقرونة بالوعي والمنهج العلمي، فقد عرف عصره جيّدًا وعرض الخطاب الديني الإلهي منسجمًا معه، دونَ أن ينجرّ باسم التجديد إلى موضات العصر.

لقد كان تجديده (رضوان الله تعالى عليه) ينطلق من روح السنّة الإلهيّة وسرّ الوحي والعرفان الإلهي والمبادئ الدينيّة الأصيلة والأسس والضوابط الشرعيّة.

هذه الخصائص هي التي جعلت آثار الأستاذ الشهيد غضّة حيّة فاعلة جميلة محبّبة رائعةذات خطاب عالمي.

وكان الشوط الأخير من دعوته أنه سقى شجرة هذه الدعوة بدمه لتبقى يانعة خالدة خلود الشهداء.

د. مجتبى مطهري

مقدمة المترجم

هذه مُحاضرة ألقاها الأستاذ العلاّمة مرتضى مطهّري بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي المنتظر (الخامس عشر من شعبان)، وتمثّل نموذجًا جيدًا للفكر الإسلامي المطروح على الساحة الإيرانية قبل قيام الجمهورية الإسلامية.

الأستاذ الشهيد في هذه المحاضرة يتّجه إلى تقديم المفاهيم الإسلاميّة بلغة حضاريّة:

ــ الغيب والعلم يقومان على أسس عقلية مشتركة، ومن أنكر الغيب فقد أزرى بالعلم.

ــ الدين كان هاديًا للعلم نحو الدقّة والتحقيق.

ــ الفلاسفة المسلمون سبقوا الأوربيين في نقد العقل الإنساني وبيان محدوديته.

ـــ الإمداد الغيبي لا يأتي اعتباطًا، بل يتحقّق نتيجــة الجهود المخلصة.

ـــ الارتباط بعالم الغيب يبعد الإنسان عــن النظــرة المتشائمة للحياة ويملؤه بالتفاؤل.

ـــ الإيمان بالغيب يجعل الكون في نظر الانسان مناصرًا لأصحاب الحقّ.

ـــ العلماء القدماء والمحــدثون يؤمنــون بالإلهــام أو الإشراق في الاكتشافات العلمية.

ـــ مسألة المهدي مسألة فلسفية كبرى ترتبط بنظــرة البشرية إلى مستقبل الكون.

ـــ لا يمكن تحقيق سعادة البشرية بالعلم وحده، بــل لابدّ من الدين لكي يوجّه الانســان نحــو الاســتخدام الصحيح للعلم.

في كل هذه المحاور التي يمرّ عليها الأســتاذ الشــهيد مطهّري نرى توجّهًا حضاريًا.. أي توجّهــا نحــو دفــع الإنسان والمجتمع نحو التكامل وصناعة الغد الأفضل.

ولا بأس ونحن نقدّم محاضرة الأستاذ الشهيد مطهري عن الغيب أن نذكر وقفة الأستاذ الشهيد سيد قطب عند هذه المسألة في تفسير الظلال على الآية الكريمة: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ باعتباره هو أيضًا صاحب خطاب أُطلق عليه اسم (الحركي)، ونحن نفضّل أن نسميه (حضاري)، لأن الحضارة هي حصيلة الحركة الثقافية التقدمية. يقول:

«الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيّز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس.

وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من

يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهتـــه وبصـــيرته؛ ويتلقّـــى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واســتمد مــن وجودهــا وجودَه.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعندئذ تُصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدّد والتمزّق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم تُوهب القـــدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئًا أن تنفق فيه.

إن الطاقة الفكرية التي وُهبها الإنسان، وُهبها ليقـــوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعـــة القريبة، تنظر فيها، وتتعمّقها وتتقصّاها، وتعمل وتنـــتج، وتنمّي هذه الحياة وتجمّلها، على أن يكون لها ســـند مـــن تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بـــالوجود كلـــه وخالق الوجود، وعلى أن تدع للمجهول حصته في الغيب

الذي لا تحيط به العقول.

فأما محاولة إدراك ماوراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها، دون سند من الــروح الملهم والبصيرة المفتوحة، وترك حصة للغيب لا ترتادهــا العقول.. فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا، ومحاولة عابثة أخيرًا. فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تُخلق لرصد هذا المجال. وعابثة لأنها تُبدد طاقة العقل التي لم تُخلق لمثل هذا المجال..

ومتى سلم العقل البشري بالبديهيــة العقليــة الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه ــ احترامًا لمنطقــه ذاته ــ أن يسلّم بأن إدراكه للمطلق مستحيل؛ وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجــوده في ضــمير الغيــب المكنون؛ وأن عليه أن يَكِلَ الغيب إلى طاقة أخــرى غــير طاقة العقل؛ وأن يتلقّى العلم في شأنه من العلــيم الخــبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة..

وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الــذي يتحلّى به المؤمنون، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين.

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري.. إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا «تقدمية» وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين!»

المرتكز الهام للشهيدين هو فهم الغيب فهمًا محركًا للإنسان نحو السموّ والارتفاع والارتقاء على سلّم الإنسانية.

ثم إن الشهيد مطهّري يرى أنّ فكرة المهدي المنتظر تأتي في هذا السياق من الفهم الحضاري.. فهي فكرة الانشداد بالإمداد الغيبي، والتفاؤل بمستقبل العالم، والثقة التامة بأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

وحتى لا يتبادر إلى الأذهان أن خطاب المحاضرة طائفي وأن فكرة المهدي الموعود المنتظر ترتبط بطائفة معينة من

المسلمين هم الشيعة، أذكر نصّ الفتوى الصادرة عن (إدارة المجمع الفقهي الإسلامي) بشأن المهدي المنتظر في جواب رسالة وجهها مسلم كيني عن هذه المسألة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد: إشارة إلى خطابكم المؤرخ في ٣١ مايو ١٩٧٦م المتضمن استفساركم عن موعد ظهور المهدي وفي أي مكان يقيم.

نفيدكم بأننا نرفق لكم مع خطابنا إليكم ما جاء من الفتوى في مسألة المهدي المنتظر، وقد قام بكتابته فضيلة الشيخ محمد المنتصر الكتاني وأقرته اللجنة المكونة من أصحاب الفضيلة الشيخ صالح بن عثيمين وفضيلة الشيخ أحمد محمد جمال وفضيلة الشيخ أحمد علي وفضيلة الشيخ عبدالله خياط.

وقد دعم الفتوى بماورد من أحاديث المهدي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبما ذكره ابن تيمية في المنهاج بصحة الاعتقاد وابن القيم في المنار.. وإن شاء الله تعالى ستجدون في الكتابة طلبكم وما ينفعكم في مسألة

المهدي أنتم ومن كان على مثلكم آملين لكم التوفيق والسداد. وتقبلوا تحياتنا...

الأمين العام محمد صالح القزاز

بعد التحية:

جوابًا عما يسأل عنه المسلم الكيني في شأن المهدي المنتظر عن موعد ظهوره، وعن المكان الذي يظهر منه وعن ما يطمئنه عن المهدي عليه السلام.

هو: محمد بن عبدالله الحسني العلوي الفاطمي المهدي الموعود المنتظر، موعد خروجه في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة الكبرى، يخرج من المغرب ويبايَع له في الحجاز في مكة المكرمة بين الركن والمقام، بين باب الكعبة المشرفة والحجر الأسود عند المتلزم.

ويظهر عند فساد الزمان وانتشار الكفر وظلم الناس ويملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما مُلئت جَورًا وظلمًا، يحكم العالم كله وتخضع له الرقاب بالإقناع تارة وبالحرب أخرى.

وسيملك الأرض سبع سنين، وينزل عيسى عليه السلام من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على

قتله بباب لدّ بأرض فلسطين.

وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلوات الله وسلامه عليه في الصحاح.

وأحاديث المهدي ورادة عن الكثير من الصحابة يرفعونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومنهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبدالله، وعبدالرحمن بن عوف، وعبدالله بن عباس وعمار بن ياسر، وعبدالله بن مسعود، وأبو سعيد الخدري. وثوبان، وقرة بن إياس المزني، وعبدالله بن الحارث بن جزء وأبو هريرة، وحذيفة بن اليمان، وجابر بن عبدالله، وأبو أمامة وجابر بن ماجد الصدفي، وعبدالله بن عمر، وأنس ابن مالك، وعمران بن حصين، وأم سلمة.

هؤلاء عشرون منهم ممن وقفتُ عليهم، وغيرهم كثير. وهناك آثار عن الصحابة مصرحة بالمهدي من أقوالهم كثيرة جدًا لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد فيها.

أحاديث هؤلاء الصحابة التي رفعوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والتي قالوها من أقوالهم اعتمادًا على ما قاله رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رواها: الكثير من

دواوين الإسلام وأمهات الحديث النبوي من السنن والمعاجم والمسانيد.

منها: سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن عمرو الداني، ومسانيد أحمد، وابن يعلى والبزار، وصحيح الحاكم، ومعاجم الطبراني، الكبير والوسيط، والروياني، والدار قطني في الافراد، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق وغيرها.

وقد خص المهدي بالتأليف: أبو نعيم في أخبار المهدي، وابن حجر الهيثمي في القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، والشوكاني في التوضيح في تواتر ماجاء في المنتظر والدجال والمسيح، وإدريس العراقي المغربي في تأليفه المهدي، وأبو العباس بن المؤمن المغربي في كتابه: الزعم المكنون في الرد على ابن خلدون.

وآخر من قرأت له عن المهدي بحثًا مستفيضًا مدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في مجلة الجامعة في أكثر من عدد.

وقد نصّ على أن أحاديث المهدي أنها متواترة جمع من

الأعلام قديمًا وحديثًا.

منه: السخاوي في فتح المغيث، ومحمد بن أحمد السفاويني في شرح العقيدة، وأبو الحسين الآبري في مناقب الشافعي، وابن تيمية في فتاواه، والسيوطي في الحاوي، وإدريس العراقي المغربي في تأليف له عن المهدي، والشوكاني في التوضيح في تواتر ماجاء في المنتظر والدجال والمسيح، ومحمد بن جعفر الكتاني في نظم المتناثر في الحديث المتواتر، وأبو العباس ابن المؤمن المغربي في الوهم المكنون من كلام ابن خلدون رحمهم الله. وحاول ابن خلدون في مقدمته أن يطعن في أحاديث المهدي محتجًا بحديث موضوع لا أصل له عند ابن ماجة: لا مهدي إلا عيسى. ولكن ردّ عليه الائمة والعلماء وأنه ليس من علماء الشريعة، وأنه قال باطلاً من القول وزورًا.

وخصّه بالرد شيخنا ابن المؤمن بكتاب مطبوع متداول في الشرق والمغرب منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ونصّ الحفاظ والمحدثون على أن أحاديث المهدي فيها الصحيح والحسن ومجموعها متواتر مقطوع بتواتره وصحته.

وأن الاعتقاد بخروج المهدي واجب، وأنه من عقائد أهل السنة والجماعة، ولا ينكره إلا جاهل بالسنة ومبتدع في العقيدة.

والله يهدي إلى الحق ويهدي السبيل.

مدير إدارة المجمع الفقهي الاسلامي
محمد المنتصر الكتاني

كل المسلمين إذن مدعوون إلى فهم حضاري للغيب ولمسألة المهدي المنتظر، باعتبارها السند الغيبي لمستقبل البشرية، و وراثة الصالحين، والى ذلك فليعمل العاملون.

أ.د. محمد علي آذرشب
رجب ١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد، وعلى آله الطاهرين.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قبل أن أبدأ بالبحث يسعدني أولا أن أبارك لكم هذا اليوم الكبير.. يوم الأماني والآمال.. يوم ولادة الأمل الكبير الذي تنتظره البشرية في مستقبل أيامها.

عنوان بحثنا ــ كما علمتموه من بطاقات الدعوة ــ هو «الإمداد الغيبي في حياة البشرية».

ولقد كنت على علم بأن هذا العنوان الذي اتخذته لبحثي هذا اليوم سيثير استغرابًا وتشكيكًا عندما يظن

بعض السذّج أني سأطرح موضوعًا عن تسخير الجنّ أو

حلّ الطلاسم أو غيرها من الموضوعات الخرافية.

ومن المؤكد أن نفرًا عند سماعه عنوان «الإمداد الغيبي» سوف يرفع عقيرته قائلا: نحن في عصر العلم والتجربة والفضاء، وكل شيء قد خضع اليوم لسيطرة حواس الإنسان!! فما هو دور الإمداد الغيبي في هذا العصر؟! عصر النور، حيث أضحى البحث عن الغيب وماوراء الطبيعة دون معنى ولا طائل فيه!!

نعم، كنت أعي كل هذه الملاحظات، عندما عمدت إلى انتخاب هذا العنوان الذي طالما أثار تساؤلاً واستنكارًا. وإنما اخترته لأنه سيثير انتباهًا أكثر إلى ما سيطرح في هذا البحث. ينبغي أن أذكر أولا، أن المسألة عكس ما يُثار حولها عادة من ظنون وشكوك. إن هذا الإنكار والإعراض، والادعاء بأن الحديث عن الغيب لا يجد مكانًا في عصر العلم، هو مخالف للعلم وللروح العلمية تمامًا.

إنه جهل بل مرحلة دون مرحلة الجهل!!

وهل هناك مرحلة تتسافل عن مرحلة الجهل؟!

نعم، إنها الجمود..

على الصعيد المالي والاقتصادي هناك ماهو دون الفقر، إنه الغرور، والاتكال على ما في اليد، أي حينما يفكر الفرد بأن ما عنده يغنيه عن السعي والفكر، فإن هذا أشد مأساة من الفقر وأكثر خطرًا منه.

الجهل قبيح لأنه عدم وفقدان علم. ولكن، كم من جاهل سعى لينهل من العلم ما يوصله إلى مستوى العلماء!!.. وكم من عالم ركبه الغرور، وخال أنه استوعب العلم بكل أطرافه، فراح يعلن عن كبريائه وخيلائه ليملأ الدنيا جهلاً وظلامًا!!

إن علم البشر لا ثقل له في ميزان حقيقة هذا الكون. وهو ضئيل بالنسبة إلى كل ما ينطوي عليه الوجود من علوم:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

إن العالم حقًا هو الذي لا يقبل شيئًا دونما دليل ولا ينكر شيئًا أيضا من غير دليل.

ليس الجامد والمغرور بعالم، وهكذا الذي يقبل وينكر دونما دليل. إنه أقرب إلى خزانة من المعلومات والصيغ، قد

اختزن كل ما أُعطي، دون أن يكون له وعي ومقياس في الرد والقبول. وبعبارة أخرى، فهو فاقد للروح العلمية.

إذا التقيتم بشخص يحمل شهادات دراسية في ألـــوان الفنون والعلوم، ولكنه يقبل ويرد دونما دليـــل وبرهـــان، فاعلموا أنه ليس بعا لم حقيقي.

ليس من خصائص العلم أن يبعث في نفـــس حاملـــه الغرور، بل العلم يبعث البشرية على أن تخضع للحقـــائق، وتسلّم بها، ويجعلها تتخذ موقف الدقة والحـــذر في الـــرد والقبول.

الجمود الأدنى والأحطّ من الجهل، هو الروح المخالفة للدقة والتحقيق. وهو الذي يسلب من البشـــر الانـــدفاع المقدس نحو البحث والتعمق.

وبما إنّ الجمود أقبح من الجهل، فـــإن روح البحـــث والتحقيق أسمى من العلم نفسه. العلم يبعث على التقديس والاحترام حينما تؤازره روح البحث العلمي، وهذه الروح تبدأ من نقطة يحس معها الإنسان بنقص معلوماته ومعارفه.

ومن طريف ما قيل، إن العلم له ثلاث مراحل، فما إن

يلج الإنسان مرحلته الأولى حتى يركبه الغـرور وتعتريـه الكبرياء، ويخال أنه يعلم كل شيء. وحينمـا يصـل إلى المرحلة الثانية تظهر عليه سيماء التواضع لأنه يرى ضآلة ما يعلمه بالنسبة لما يجهله. لكنه حينما يصل المرحلة الثالثـة يدرك أنه لا يعلم شيئًا، ويصبح من الواضح عنده أنـه لم يتضح له شيء بعد.

أنشتاين ــ وهو أجل علماء الرياضيات والطبيعيـات في عصرنا بلا منازع ــ يقول في مقدمة الخلاصة الفلسفية لنظريته النسبية:

«إن الإنسان بعد توغله في الفيزياء الحديثة يستطيع أن يدعي بأنه اطلع على الحروف الأبجدية لكتاب الطبيعـة لا أكثر».

أي إن الإنسان في تعرّفه على حقائق الكون كطفل قد طوى لتوّه مرحلة تعلم حروف الكتابة فحسب. وما أطول المدة التي يحتاجها هذا الطفل كي يستطيع أن يقرأ الكتب العلمية المدونة بتلك الحروف!!

أنا لا أريد اليوم أن أفرض عليكم مقولتي، بل الـذي

أريده هو أن أتخذ موقف المتحدث الديني في هـذا المقـرّ العلمي، لأقوم بالدور الذي نهض به الـدين إزاء العلـم، عندما كان الدين هاديًا للعلم نحو الدقة والتحقيق.

يقول وليم جيمس: «إن الدين يحـدثنا عـن أمـور يستحيل إدراكها ابتداءا على العقل والعلم. لكـن هـذه الرموز ـــ التي حدثنا عنها ـــ دفعت العقل إلى أن يبحث ويحقّق، ومِنْ ثَمَّ توصل إلى نتائج باهرة».

العلماء يجمعون على أن الدين كان المحرك الأول لكثير من المسائل العلمية التي توصلت إليها البشرية اليوم.

ماهو الغيب؟

الغيب يعني الخفاء ماوراء الستار، أي هو الشيء الذي غاب عن حواسنا، وخرج عن دائرة الإدراك الحسي.

وردت كلمة الغيب مرارًا في القرآن الكـريم، فتـارة ذُكرت وحدها، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾

وتارة أخرى استُعملت بإزاء كلمة الشهادة كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

الفلاسفة المسلمون استفادوا من هذا التعبير فسموا الطبيعة المادية «الشهادة» واصطلحوا على عالم الملكوت بعالم «الغيب».

الأدب العرفاني الفارسي تحدث عن عالم الغيب، بتعبيرات دقيقة رائعة نجدها منتشرة في أشعار حافظ والخيام والمولوي وسعدي..

الإيمان بعالم الشهادة لا يتطلب أكثر من الحواس. وتسمية هذا العالم بعالم الشهادة تنطلق من كون هذا العالم محسوسًا ملموسًا. من هنا لا نحتاج إلى مرشد يوجهنا للإيمان بهذا العالم، بل نحتاج إلى معلّم يهدينا سبل البحث والتحقيق، لنتعرف أكثر فأكثر على حقائق عالم الشهادة.

غير أن هذه الحواس قاصرة عن الإيمان بعالم الغيب. وهنا تبدأ وظيفة العقل ـــ وهو المرحلة الغيبية من وجودنا ـــ في إدراك هذا العالم المجهول، بل لعلّ الاطلاع على هذا العالم يتطلب قوة إدراك أكثر خفاء من العقل..

الأنبياء هداة وأدلاء على عالم الغيب، بُعثوا لكي يدعوا الناس للإيمان بهذا العالم وبما وراء الحس الظاهر،

وليكونوا حلقة اتصال، وليوصلوا الناس إلى المدد الغيبي في الأحوال والظروف الخاصة..

لم يكتف الأنبياء بدعوة الناس إلى الإيمان بوجود الغيب، بل عملوا على إيجاد رباط بينهم وبين ذلك العالم.. وهنا تبدأ العلاقة العملية بين الحياة البشرية وبين الغيب.

ستار الغيب

ذكرنا أن الغيب يعني الخفاء.. ماوراء الستار.

فما هو هذا الستار الذي ينبغي أن يُزاح كي نستطيع أن نرى وندرك؟

أهو ستار حقيقي أم هو كناية عن حقائق أخرى؟

لقد ورد ما يرادف كلمة الستار في القرآن الكريم عند حديثه عن أهل القيامة: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وفي حديث لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: «لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا».

إن هذا الغطاء ليس جسمًا ماديًا طبعًا، إنه التعبير عن الإطار الذي تتحدد به حواسنا في إدراكها.

محدود وغير محدود

إن الموجودات تنقسم ــ بحسب التقسيم العقلي ــ إلى محدودة وغير محدودة. وحينما تعرّف المحدودات فإن غيرها سيتضح تلقائيًا.

إنكم تجلسون الآن في مكان معين، وتشغلون حيزًا محدودًا من الفراغ. وإن أردتم الجلوس في مكان آخر، يلزمكم ترك المكان الأول لتتحركوا إلى المكان الثاني. أي إنكم لا تستطيعون إشغال المكانين في آن واحد، فأنتم من ناحية المكان محدودون إذن بمكان معين.

وهكذا من ناحية الزمان، فنحن موجودون في الزمن الحاضر، وغير موجودين في زمن مضى، ولا في زمن لم يأت بعد.

أما لو تسنّى لموجود أن يكون غير محدود في زمان أو مكان، أي أن لايخلو منه زمان ولا مكان، بل هو في كل زمان ومكان، ومهيمن على الزمان والمكان، عند ذاك تعجز حواسنا عن إدراك هذا الموجود.

نحن نستطيع أن نرى الموجود حينما يكون محدودًا ومستقرًا في جهة معينة، وله شكل معين، ويمكن أن يشار إليه. أما إذا لم يكن محدوداً، وليس له شكل أو جهة،

فتستحيل علينا رؤيته.

نحن نستطيع أن نسمع صوتًا حينما يكون موجوداً حينًا، وغير موجود حينًا آخر. أما إذا امتد الصوت في دويّ واحد، واستمر دونما انقطاع في وصوله إلى أذننا، فلا نستطيع سماعه إطلاقًا.

يقول الغزالي: «نحن نستطيع أن نعرف النور لأنه موجود تارة، وغائب تارة أخرى، ولأنه مرئي في مكان ومفقود في مكان آخر. ولو قُدّر للعالم أن يكون مضيئًا باستمرار وبشكل واحد، وليس ثَمَّ ظل ولا ظلام، ولا غروب ولا أفول، لَجَهلنا ـــ عند ذاك ـــ معنى النور الذي هو أظهر الأشياء، بل المُظهر لكل الأشياء الأخرى».

إننا نعرف النور ـــ إذن ـــ بنقيضه، وهو الظلمة. وعن طريق هذا النقيض نسلّم بوجوده.

يقول المتصوفة والعرفاء: إن الله قد اختفى لشدّة ظهوره، فهو قد خفي لأنه لا يغيب، ولا يخلو منه زمان ومكان.

يامن هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره

الشاعر الفارسي يمثل هذه المسألة بأسلوب جميل فيقول:

كانت هناك سمكة تسبح في البحر.
وكانت مثلي ذاتَ إدراك ضيّق الأفق.
لم تُعانِ يومًا أذى من صياد،
ولا عدم ارتياح من شباك الصيد
لم تحس يومًا بعطش.. ولا بحرارة شمس
لقد وعت يومًا على صوت أناس..
ينادون: واعطشاه! أين الماء؟
رجعت السمكة إلى نفسها تفكر في هذا الماء
ما هذا الإكسير الذي يحيي كلّ شيء؟!
إذا كان هو أساس الحياة..
فَلِمَ يا ربِّ قد حَجَبته عنّي؟!
لم يكن يتجلّى أمام ناظريها صباح مساء سوى الماء..
إنها كانت تعيش بكَنَفِهِ باطمئنان، ولكنها كانت تجهله..
كانت غافلة عن النعمة التي تعيش في أحضانها،
إلى أن ألقاها الموج إلى ساحل البحر..
وحينذاك غمرت جسمَها أشعةُ الشمس المحرقة.
وأضرمَ بُعد الماء في أحشائها نارًا
لقد جفّ فمُها من شدة العطش.

وتذكرت الماء وهي مستلقيةٌ في التراب
وسمعت من بعيد خرير الماء.
بدأت تضرب نفسها الأرض وهي تقول:
لقد عثرت الآن على هذا الإكسير الكيميائي
الذي لا أستطيع أن أعيش بدونه
أسفًا! لقد عرفته بعدما قصرتْ يدي عن نَواله.

نعم، إن السمكة، التي تعيش العمر كله في أحضان الماء، ولا تجد في مسيرها وفي كل ما يحيطها سواه، لا تستطيع أن تفهمه. والشيء الذي تشك فيه ولا تقدّره حقّ قدره هو الماء نفسه. إلا أنها عرفته وتمنّته حالما انفصلت عنه لحظة، ودخلت إلى عالم اليابسة.

هذا التمثيل يستهدف توضيح المسألة التي سبق أن ذكرناها، وهي أن السبب في خفاء الغيب يرتبط بقدرة حواسنا على الإدراك، لا بوجود مانع وحاجز بينه وبين جهازنا الحسّي والإدراكي.

نحن نعلم أن فلاسفة أوروبا المحدثين يدّعون لأنفسهم قَصَبَ السبق في البحث حول الإدراك البشري، ويعتبرون بحوثهم في هذا الميدان ابتكارًا.

ولعل الأساس الذي اتخذه بعض كبار فلاسفة أوروبا

لبحوثهم هو نقد وسائل الفكر الإنساني. ومن أعظم ما كتبه «كانت» ـــ الفيلسوف الألماني ـــ كتابان حول نقد العقل النظري، ونقد العقل العملي.

لا يهمنا في هذا البحث التعرف على مقدار الابتكار في اتجاه هؤلاء الفلاسفة. ولا نريد شرح أسبقية العلماء المسلمين في تناول هٰذا الاتجاه النقدي. بل نكتفي بالإشارة إلى أن الفلسفة الإسلامية عمدت إلى هذا اللون من النقد قبل غيرها. ولكن لا باسم النقد بل تحت عناوين أخرى.

لهذا الاتجاه النقدي ـــ في الفلسفة الإسلامية ـــ عطاء ثرّ قيّم يفوق ما تمخّضت عنه العقول الأوروبية، ولي أمل العودة إلى هذا الموضوع في لقاء آخر كي نبحثه بتفصيل وبرهان.

الشاعر الفارسي ـــ مولوي ـــ يمثل في شعره قبل مئات السنين لمحدودية الحس البشري، فيقول:

جاء الهنود بفيل إلى أرض لم تعهد رؤية الفيل من قبل.. ووضعوه في دار مظلمة لا نور فيها.

ودخل الناس واحدًا بعد آخر ليمسّوه!

وما إن خرجوا حتى بدأ كل منهم يصفه من خلال ما أحسّه بلامِسَتِهِ.

فهذا الذي وقعت يده على الخرطوم قال: إن الفيل يُشبه الأنبوب!

وذاك الذي لمس الأذن قال: إنه يشبه مروحة يدوية!

أما الذي استطاع لمس ظهره فوصفه بأنه يشبه السرير!

وما كان من الذي لمس قوائمه إلا أن قال: إنه يشبه الأسطوانة!

إن الباصرة قادرة على أن ترى الفيل بضخامته، وبكل أعضائه وأبعاده. أما اللامسة ــ وخاصة حينما تكون بكف اليد فقط ــ فلا تستطيع أن تدرك ذلك. والصدفة هي التي تلعب دورها في مكان وضع كفّ اليد من الفيل.

اللامسة إذن محدودة بالنسبة إلى الباصرة التي هي غير محدودة نسبيًا. وهذه النسبة تصدق في مقارنة الحواس مع القوى العقلية.

عالم الغيب

ما هو الطريق الذي يسلكه العقل ليطّلع على العالم الآخر؟

ماهي الآثار المرئية التي بمقدورها الدلالة على ذلك العالم؟

هذه المسائل لا يمكن لهذا البحث الموجز أن يستوفيها. ولا بأس بالإشارة إلى أن البحوث العلمية والفلسفية في آخر مراحلها، قد توصلت إلى أن الأصل في كل الأشياء المادية هو الحركة. وسلكت العلوم لإثبات ذلك طريقًا يختلف عن طريق الفلسفة.

إن رأي الفلسفة يرتكز على التغيّر الدائم للذرات وجواهر الأشياء. الكون كله — في نظر الفلسفة — رَكْبٌ متنقّل، ولكنه ليس بذاك الرَّكب المتنقل من مكان إلى آخر فحسب، بل إنه في حالة انتقال من وجود إلى وجود آخر باستمرار وبدون انقطاع.

أثبت صدر المتألهين الشيرازي أن جواهر الأجسام في حالة تغيّر وتبدّل. أي إنه أثبت إمكان ما كان يعتقد أرسطو وابن سينا أنه مستحيل. وهو لم يثبت إمكان الحركة الجوهرية فقط، بل اعتبرها ضرورة حتمية.

العالم في نظر هذا الفيلسوف وحدة متحركة باستمرار، وفي حالة حدوث وفناء دائمين.

بناء على هذا فإن العالم غير قائم بذاته، بل قائم بغيره، وهذه مسألة واضحة لا تحتاج إلى شرح وتفصيل.

من هنا نفهم أن المسألة الأساسية ليست مسألة البحث

عن العلة التي أوجدت العالم من العدم في لحظة واحدة معينة، بل إن البحث يتجه إلى أن العالم يولد في كل لحظة من العدم، ومِنْ خلفِهِ يدٌ تُوجده وتَفنيه باستمرار، ومن غير انقطاع..

الإمداد الغيبي

لقد أوضحنا فيما مضى: أن كل الموجودات تستمد وجودها من الغيب. وبعبارة أخرى فإن الإمداد الغيبي يعمّ الطبيعة جميعًا. ولكننا نريد أن نضيف هنا بأن ثمة مجموعة من الإمدادات الخاصة لها وجود أيضا.

وهل هناك إمداد خاص؟.. نعم.

لكي أستطيع توضيح هذا الموضوع، ينبغي أن أشير أولا إلى مصطلح قرآني وارد في آية البسملة حيث تصف الباري تعالى بالرحمن، والرحيم.

وكلتا الكلمتين مشتقّتان من الرحمة مع تفاوت بينهما.

الرحمة «الرحمانية» تشمل كل الموجودات، إذ إن وجود كل الأشياء، وديمومتها وبقاءها مَدينٌ لهذه الرحمة.

أما الرحمة «الرحيمية» فهي اللطف والعناية الخاصة التي ينالها الموجود المكلف على أثر أداء الوظيفة المنوطة

إليه. وهي عناية خاصة لها قانونها الخاص، غير قانون الطبيعة. لقد جاء الأنبياء ليرشدونا إلى هذا النوع من الإمداد الغيبي. وإذا استقرت أنفسنا على الإيمان بهذا الإمداد، فسندخل في علاقة مباشرة مع رب العالمين. نحس بأننا أمام جزاء عادل لكل أعمالنا خيرًا كانت أم شرًا.

وعلى أية حال ينال الإنسان أحيانًا في حياته الفردية والاجتماعية نوعًا من الرحمة تُنجيه من الكبوة والسقوط.

والله سبحانه يخاطب رسوله الكريم قائلا: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى﴾

ونحن في صلواتنا الخمس نقرأ:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وهو نوع من الاستمداد الغيبي.

أنواع الإمداد

يد الغيب تتجلّى أحيانًا بصورة تهيئة الظروف المناسبة للتوفيق، وأحيانًا بصورة هداية وتفتّح ويقظة.

لكن الذي ينبغي تأكيده هو أن المساعدات الغيبية لا تأتي عبثًا دونما مقابل.

لا ينبغي أن يجلس الإنسان في بيته مكتوف الأيدي منتظرًا يد الغيب لتنقذه. فهذا الانتظار مخالف لناموس الطبيعة والخلقة.

نذكر آيتين كريمتين إحداهما حول الإمداد الغيبي الذي يتجلّى في تهيئة الظروف المناسبة للتوفيق، والأخرى حول إمداد الهداية المعنوية، لننظر إلى الشروط التي يصفها القرآن الكريم للإمداد الغيبي:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

فالنصر الإلهي ـــ الذي هو إمداد غيبي ـــ مشروط بنصرنا لله. أي أن نبذل ما وسعنا في سبيل الصالح العام لله وفي الله.

فالسعي والجهد ينبغي أن يلازمه الإخلاص وحسن النية أيضًا.

وفي الإمداد الثاني يقول جلّ وعلا:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

هذه الآية أيضا تشترط الجهاد «فينا»، وبعبارة أخرى تشترط صرف طاقة جسمية إلى جانب الطاقة الروحية، ليستطيع الإنسان في النتيجة أن ينال الهداية والتفتح

والانفتاح.

ليس هناك إذن حديث عن إمداد يُنال دونما مقابل.

يتحدث الإمام علي (عليه السلام) عن شروط الإمداد والإسناد الغيبي فيقول:

«وَ لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ (صلى الله عليه وآله) نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَ أَبْنَاءَنَا وَ إِخْوَانَنَا وَ أَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً وَ مُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَ صَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ وَ جِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ وَ لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَ الآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَ مَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَ أَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ وَ مُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ وَ لَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَ لا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ».

وهذه الآية تطالعنا في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾.

وهي تحدثنا عن الهداية، وعن ربط القلب وتقوية الإرادة، وكلاهما مشروطان بعاملين:

الأول: القيام.

والثاني: أن يكون هذا القيام لله وفي سبيل الله.

الذي يبحث عن الحق والحقيقة، ويجهد نفسه في طريق الوصول إليها سوف تمتد إليه يد الغيب لتشمله بعنايتها، وهذه لعمري مسألة تجربية إضافة إلى أنها مسألة إيمانية. لكنها تجربة شخصية، يلزم على الفرد أن يمارسها في حياته ليلمس آثار اللطف والعناية الربانية وهي تحتضنه.

وما أجملها من لذة..!!

ليس الأمر بالصعب. مراحله الأولية بسيطة يستطيع الإنسان أن يطويها من خلال خدمة المجموع ومساعدة الضعيف، والإحسان إلى الوالدين، على أن يصحبَ هذه جميعًا الإخلاصُ وحسنُ النيّة.

عند ذاك سوف تتجلّى له اليد الرؤوفة آخذة بناصره، ولعلّي أستطيع أن أدّعي بأني مارست تلكم الشروط، وأحسست معها باللذة تحتَ ظلال رحمةِ رب العالمين، ولمست تلك العناية بوضوح.

يخطر في ذهني ــ بهذا الصدد ــ موقفُ المرحوم آية الله البروجردي ــ أعلى الله مقامه ــ .

لقد غادر ــ رحمه الله ــ مدينة (بروجرد) إلى

(طهران) على أثر مرض شديد تطلب عملية جراحية.

ثم شدّ الرحال منها إلى مدينة (قم) حيث اختارها مقامًا على أثر طلب الحوزة العلمية منه ذلك.

وعند حلول العطلة الصيفية للحوزة في تلك السنة قرر أن يسافر إلى مشهد الرضا (عليه السلام) إذ عُلِمَ بعدها أنه كان قد نَذَر على نفسه هذا السفر لله أثناء مرضه رجاءً للشفاء.

أعلن سماحته تصميمه هذا في مجلس خاص من العلماء، وطلب إليهم أن يعيّنوا مَنْ يرافقه في سفره هذا. وكان جواب الأصحاب أن طلبوا منه فرصة ليفكروا في الأمر.

قال لي أحد العلماء ممن حضر ذلك المجلس: إننا اجتمعنا وتشاورنا في الأمر، فلم نجد الظرف مناسبًا لسفرٍ مثل هذا، في ذلك الوقت. إذ إن السيد البروجردي كان قريب العهد في القدوم إلى مدينة (قم)، ولم يتعرف عليه الشعب الإيراني بعد، وعلى هذا فإن المواطنين سوف لا يقومون بما يناسب مترلته من الحفاوة والتكريم.

كان هذا هو العامل الأول الذي دعانا إلى تثبيط عزيمة السيد على السفر، ولكننا لم نجرؤ على أن نصارحه

بالسبب الحقيقي، بل جعلنا العملية الجراحية التي أُجريت له حجة لرفضنا هذه السفرة. وكان أن قلنا جميعًا: إن السفر الطويل بالسيارة (إذ لم يكن خط جوي أو حديدي يربط المدينتين آنذاك) سوف لا تكون نتائجه حَسَنة على صحّة السيد.

وفي جلسة أخرى حيث كرّر السيد حديثَ السفر، سعينا بكل ما وسعنا من جُهد لأن نغيّر وجهة نظره، لكنّ أحدَ الحاضرين لم يُخفِ الأمر، بل صرّح له بقصدنا من وراء هذه المخالفة.

تغيّرت ملامح السيد فجأة، وتحدث بلهجة صارمة روحية قائلا: «منحني الله سبعين سنة من العمر كانت مملوءة بمَنح وعطايا لم تكن إحداها من تدبيري وتقديري. سعيت طوال هذه المدة لأن أتعرف على وظيفتي في الحياة. والآن، وبعد أن تصرّمت تلك السنون السبعون، لا ينبغي أن أفكر بأموري الخاصة بنفسي! كلا.. لابد أن أسافر..».

نعم، إن الإنسان، لو قرن السعيَ بالإخلاص في ممارسته لأعماله الحياتية، سوف يأتيه التسديد من حيث لا يحتسب.

الفرق بين الفكر الإلهي والفكر المادي

إذا نصرتم الحقيقة، فلابد أن تكون الحقيقة سندًا لكم وظهيرًا.

وهنا يبدو بوضوح الفرق بين الإنسان الإلهي والإنسان المادي.

ليس ثم تفاوت ــ في نظر الإنسان المادي ــ بين طريق الحق والباطل، وبين العدل والظلم. وليس للحق والباطل، ولا للصالح والطالح في ميزان النظام الكلّي للعالم حساب ووزن.

فالعالم لا يعبأ بهذه الموازين والقيم.

ليس للعالم ــ في الرؤية المادية ــ عين ولا أُذن ولا عقل ولا إدراك يعي بواسطتها القِيَم المختلفة ليسند ويؤيد السائرين على طريق الحقّ، ويخذل المنحرفين عن الطريق السويّ المستقيم.

إلا أن الإنسان الإلهي يفرّق بين الطريقين. فهناك حقيقة تسند دعاة الحق وتأخذ بأيديهم.

ذكرت في كتاب «الإنسان والمصير» تحت عنوان «أثر العوامل المعنوية على المصير»: «أن الرؤية المادية للعالم

تذهب إلى أن العوامل المؤثرة على أجَلِ الإنسان ورزقه وسلامته وسعادته مادية صرفة. فالعوامل المادية وحدَها هي التي تتحكّم في تقريب أجَل الإنسان، وفي ضيق رزقه وسعته، وفي سلامة جسمه، وكذا في ضمان سعادته.

إلا أن الرؤية الإلهية للعالم تذهب إلى أن العوامل الروحية والمعنوية تؤثر، إلى جانب العوامل المادية — في كل ما يعتري الإنسان شرًا أم خيرًا.

النظرة الإلهية تعتبر العالم وحدة حيّة ذات إدراك وشعور. أعمال البشر فيه محصيّة، ولأفعالهم نتائج يتلقوها عاجلا أم آجلا..».

النظرة المادية ترى أن العالم يقف محايدًا تجاه السنن التشريعية والاتجاهات العملية البشرية. أي ترى أن السنن الكونية في العالم لا تتحيّز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور، لها في المنظار الكوني حساب واحد.

لكن المدرسة الإلهية لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أصحاب الحق والباطل.

العالم — في رأي هذه المدرسة — مناصر للسائرين على طريق الحق والعدالة والاستقامة، ولذوي الأهداف

المقدسة.

الإنسان المادي ــ مهما أوتي حظًّا من الإيمان والاعتقاد بمذهبه وطريقه، ومهما كانت أهدافه وآماله ذات مصلحة عامة ومقدسة وبعيدة عن الذاتية والنفعيّة ــ لا يؤمن بأكثر من أنه سوف يتلقى نتائج أعماله بمقدار ما بذله من سعي وجهد لا أكثر.

بينما الفرد المسلم يؤمن ويعتقد أنّ الموجودات الكونية سوف تهبّ لحمايته ونُصرته، إن ضحّى في سبيل عقيدته وإيمانه. ويؤمن أنّ الكون ينطوي على قوى تفوق آلاف المرات تلكم القوى التي يبذلها في الطريق.

الرؤية المادية تؤكد أن دعاة الحق يتلقّون من نتائج أعمالهم بنفس القدر الذي يُتاح للظالمين أن يكسبوه نتيجة ظلمهم؛ إذ ليس ثمة فرق ــ في الفهم المادي ــ بين الفريقين، إلا أن الفرق هائل في حساب المدرسة الإلهية.

الإلهام والإشراق

الإلهام أو الإشراق نوع من المدد الغيبي ينفذ إلى كيان العلماء فيفتح لهم أبوابًا من العلم تــؤدي إلى اكتشــافات هائلة.

إن الطرق التي نفهمها للوصــول إلى العلــم اثنــان، إحدهما: التجربة والمشاهدة العينيــة، والآخــر: القيــاس والاستدلال.

هذه المكتسبات طبيعية لأنها النتيجة القطعية اللازمــة لمقدمات طواها الإنسان بشكل عملــي. غــير أن هــذه المكتسبات ــ في المنظار الفلســفي الــدقيق ــ ليســت منفصلة عن منشأ إلهامي. وإلى هذا يشير الســبزواري في منظومته:

والملهم المبتدع العليم حيّ قديم منّه عظيم

وهذا خارج عن بحثنا.

والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو: هل إن البشــرية قد طوت مسيرتها العلمية من خــلال هــذين الطــريقين فحسب، أم إن ثمة طريقًا ثالثًا قد أمدّها بما توصّلت إليــه

وجَنَته؟

يعتقد العلماء أن هناك طريقًا ثالثًا. ولعل أغلب الاختراعات والاكتشافات الكبرى تمت عن هذا الطريق الثالث، وهو نوع من تيار كهربائي قد ينقدح فجأة في نفس العالم وعقله، فيضيء ما حوله، ثم ما يلبث أن ينطفيء.

يعتقد ابن سينا أن هذه القوة موجودة في الأفراد بدرجات متفاوتة ومختلفة، ويذهب إلى تفسير الآية الكريمة:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

بهذه القوة التي لها وجود شديد مؤثر عند بعض الأفراد.

يذهب الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» إلى أن أكثر معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعاشية انبثقت أولا بشكل إلهامي. وفي بحثه عن الوحي والنبوة يقول: إن مجموعة المعلومات التي يمتلكها البشر عن الأدوية والعلاج وعن النجوم لا يمكن أن تكون مكتسبة عن طريق التجربة،

فلابد أن تكون صادرة عن اللطف الإلهي، بطريق الإلهام، لهداية البشر.

الخواجه نصير الدين الطوسي هو الآخر في بحثه عن الوحي والنبوة يذهب إلى أن معظم ما توصل إليه البشر تم عن طريق الإلهام.

لعل الكثيرين يتصورون أن الإلهام فكرة قديمة ليس لها اليوم أنصار، ويخالون أن الحواس الظاهرة هي مصدر كل معلوماتنا في عالمنا اليوم عن طريق المشاهدة والتجربة، ولا شيء غير هذه الحواس!!

لكنّ المسألة ليست كما يتصورون ويخالون.

جمع كبير من العلماء المعاصرين يذهب إلى أن كثيرًا من النظريات أُوحِيت إلى العلماء عن طريق شبيه بالإلهام.

يدافع «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن نظرية الإشراق والإلهام ويقول:

«من المؤكد أن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصيلة الفكر الإنساني. النوابغ يمتلكون خصائص معينة كالإشراق والخلاقية، إضافة لما لهم من مطالعات وتفكير

في المسائل المختلفة. فعن طريق الإشراق يدركون ما خفي عن الآخرين، ويبصرون الروابط المجهولة بين القضايا التي يُظن أن لا ارتباط بينها، ويتوصلون إلى فهم المسائل الهامة دونما دليل وبرهان».

ويقول أيضا:

«يمكن تقسيم العلماء إلى فريقين: منطقيين وإشراقيين، والعلوم مدينة لهذين الفريقين. وللإشراق نصيبه في العلوم الرياضية أيضا، مع أنها تستند إلى أساس منطقي كامل. ويحتل الإشراق في الحياة الاعتيادية ـــ كما في القضايا العلمية ـــ محلا خطيرًا باعتباره عاملاً للفهم والإدراك، ويصعب التمييز أحيانًا بينه وبين التوهّم...

الرجال العظام والطاهرون يستطيعون، عن طريق الإشراق، التوصل إلى قمة الحياة المعنوية. وهذ الموهبة عجيبة حقًا، وإدراك الواقع دونما دليل وتفكير، غير قابل للتفسير».

يعرض لنا «الكسيس كارل» ثلة من علماء الرياضيات يدّعي أنهم منطقيون اكتسبوا معلوماتهم عن طريق السعي

والاستنتاج المنطقي فحسب، ويعرض إلى جانب هـؤلاء أسماء عدة من علماء الرياضيات الذين تلقّوا علمهم عـن طريق الإشراق والإلهام.

هذه النظرية أيّدها علماء آخرون. وأخيرًا اطّلعتُ على مقال للعالم الرياضي الفرنسي «جاك هادا مـارا» تحـت عنوان «دور العقل الباطن في في الإدراك العلمي» جاء في ترجمته:

«حينما نفكـر بالعوامـل الـتي أدت إلى ظهـور الاكتشافات والاختراعات فإننا لا نسـتطيع إطلاقًـا أن نتجاهل دور الإدراك الفجائي الداخلي.

كل عالم محقق يدرك ــ إلى حد ما ــ هذه المسـألة، ويعلم أن بعض ما توصل إليه من المسائل العلمية كانـت نتيجة سلسلة من النشاطات الشعورية، بينما توصـل إلى البعض الآخر عن طريق الإلهام الباطني».

العالم الكبير «أنشتاين» كان له نفس هذا الإيمان حول الفرضيات الكبرى، وكان يقول إن مبدأ هذه الفرضـيات نوع من الإلهام والإشراق.

نتيجة

نفهم من مجموع ما ذُكر أن أنواعًا من الإمدادات الغيبية لها وجود في حياة الأفراد، تمنح الفرد أحيانًا عزمًا وإرادة وربطًا على القلب، وقد تعدُّ له الوسائل المادية، أو تبرز هذه الإمدادات بشكل قوة تهدي وتُنير، وتلهم الأفكار العلمية.

من هنا نعلم أن الإنسان لم يترك سدى، فاللطف الإلهي والعناية الربانية تشمله في شروط معينة، وتنتشله من الضلالة والضياع والحيرة، وتنجيه في لحظات العجز والخور والضعف.

إن هذا شأن الأفراد فما شأن المجتمعات؟

الإمداد الغيبي الاجتماعي

هل من الممكن أن تمتد يد العناية الغيبية إلى مجتمع كي تنتشله من هوّته وتساعده في قيامه؟

الأنبياء العظام كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

صلوات الله عليه وعليهم، والمصلحون المعروفون، ظهـــروا في وقت تحتاج إليهم البشرية أيّما احتياج.

إنهم كانوا كاليد الغيبية التي امتدت لتُنجي البشـــرية. كان شأنهم كالديمة السمحاء التي تهطل في صحراء قاحلة مجدبة، كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُـــنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الإمام علي (عليه السلام) يصف الظروف التي رافقت البعثة النبوية المباركة فيقول:

« أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ

وَ اعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَـــظٍّ مِـــنَ الْحُرُوبِ وَ الدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ عَلَى حِـــينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا وَ إِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا».

إن ظهور الأنبياء أعقب سقوط البشرية، أو انحـــدار مجتمع من المجتمعات في هوّة سحيقة، فكان أولئك الأنبياء سببًا للإنقاذ والنجاة.

القرآن الكريم يخاطب معاصري الدعوة قائلا: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

يقول المثل الفارسي: «الضياء والصباح نهاية الليل الأسود» وتقول أمثال بعض الشعوب: «الفرج نهاية الشدة». وهذه المقولات تتحدّث عن نوع من التجارب البشرية، وتدلّ على أن سير الكون ليس عبثيًا كما يتصوّره الماديون.

مسألة المهدي

مسألة المهدي في الإسلام، هي مسألة فلسفية كبرى.

الإنقاذ المرتقب لا ينحصر في أمة معينة أو منطقة مشخّصة أو جنس بالذات، بل إن الإنقاذ يمتدّ ليشمل البشرية جمعاء، وليسير بها نحو مدارج الرقي والصلاح والسعادة.

ربما قال قائل: إننا في عصر العلم وتسخير الفضاء، وليس ثم خطر يواجه البشرية كي تكون هناك حاجة إلى

إمداد غيبي!! البشرية ترتقـي علـى سـلّم الاسـتقلال والكمال، ويقلّ احتياجها تدريجيًا إلى المعونة والإمـداد، فالعقل والعلم يملآن فراغ الحاجة والاستمداد!! كان الخطر يواجه البشرية حينما كانت تغـطّ في غياهـب الجهـل والانحطاط، وليس ثمّ خطر يواجه مجتمعًا تنـوّر بـالعلم والمعرفة!!

هذا الجنوح في الخيال لا أساس له مع الأسف.

إن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم ليس بأقل مما كان يحيط بمجتمعات العصور السالفة، بل إنه أكثر وأعظم.

من الخطأ أن نعتقد أن الجهل كـان وراء انحـراف البشرية دائمًا. وهذه مسألة شغلت الباحثين في علم التربية والأخلاق.

إن سبب الانحراف هو الغرائز والأهواء المرسلة العنان. هو الشهوة والغضب والحرص على طلب الشهرة والجاه، والنهم في الاستكثار من اللذة، وحبّ الذات وعبادها.

والآن لنلق نظرة على الغرائز المادية، والأهواء البشرية في عصرنا الراهن، وكذا على دوافع السيطرة واسـتثمار

الآخرين وعبادة الذات والمنفعة الشخصية، وعلى دوافع الظلم الإنساني.

هل إنها جميعًا هادئة مستقرة في ظل العلم؟

هل إنها مهذبة بروح العدل والتقوى والرضا والعفاف والاستقامة؟!

أم إن المسألة معكوسة تمامًا؟!

لم يعد خافيًا أن الغرائز البشرية المادية قد جنّت اليوم أكثر من أي وقت مضى، وأضحت العلوم والفنون أدوات وآلات لدن تلكم الغرائز.

أضحى مَلاك العلم في خدمة شيطان الشهوة، وأصبح العلماء وكل المشتغلين في الحقل العلمي أدوات طيّعة تخدم الساسة والفراعنة وطلاب السيطرة والنفوذ.

ليس هناك من شك في أن التقدم العلمي لم يترك أي أثر إيجابي على الغرائز البشرية.. بل بالعكس فإن هذا التقدم زاد من غرور الإنسان وطغيانه وهيّج غرائزه الحيوانية، وسعّر لظاها، حتى أضحت العلوم والفنون اليوم أكبر عدوّ للبشرية.. أي إن هذا الصديق الحميم للبشر

أصبح عدوًا لدوداً له..

لماذا؟!

لأن العلم مصباح، وسيلة إنارة.. الاستفادة منه ترتبط بكيفية استعمال هذا المصباح، والهدفِ من وراء هذا الاستعمال.

يستطيع الفرد أن يستفيد من المصباح لقراءة كتاب أو ــ على حد قول الشاعر الفارسي سنائي ــ لانتقاء المتاع الأفضل عند السرقة.

العلم سلّم تستطيع البشرية عن طريقه أن تصل إلى أهدافها، وتحقق غاياتها، وليس العلم بقادر على تغيير أهداف الإنسان، ولا يستطيع أن يقدّم له قِيَمًا ومقاييسَ إنسانية.

هذه وظيفة الدين.. الدين هو الذي يستطيع أن يتحكّم في الغرائز والأهواء الحيوانية، ويحرّك في الإنسان الدوافع النبيلة السامية.

العلم يستطيع أن يُخضع لسيطرته كلَّ شيء، إلا الإنسان وغرائزه. الإنسان هو الذي يسخّر العلم في الاتجاه

الذي يطمح إليه. والدين هو الذي يسخّر الإنسان ويوجهه الوجهة الخاصة.

يقول «ويل ديورانت» في مقدمة كتابه «لذائذ الفلسفة» عن إنسان عصر الآلة: «نحن أصبحنا أغنياء في التكنيك والآلة، إلا أننا فقراء في الهدف.

لم يتغيّر الإنسان في عصر العلم عن ذاك الإنسان الذي كان يعيش في عصور قد خَلَت من قبل في كونه أسيرًا لقوتي الغضب والشهوة وعبدًا لهما.

لم يستطع العلم أن يحرّر الإنسان من أهوائه النفسية.. لم يستطيع أن يغيّر روح التجبّر والتفرعن والسفك والغضب في الإنسان.

مع فارق، هو أنّ روحَ النفاق والتظاهر قد سادت في عالمنا اليوم، وهيمنت عليه. وأن يدَ الاعتداء قد طالت فتجاوزت حدودَ السيف لتصل إلى مرتبة الصواريخ عابرة القارات، وإلى قاذفات القنابل».

مستقبل العالم

إننا مسلمون مؤمنون بوجود إله مهيمن على هذا الكون. وهذا الإيمان هو الذي يقلّل من خطر الكارثة في أعيننا.

كل الأخطار التي تحيط بالإنسانية اليوم لا توحي لنا بالفناء الكامل لهذا الكون، لأننا مطمئنون في أعماقنا بأن للبشرية مستقبلاً يمتدّ إلى ملايين السنين.

إن هذا الاطمئنان تبعثه في النفس تعاليم الرسل والأنبياء، إنه في الواقع إمداد غيبي نستند إليه.

لو أُخبرنا بنجم ضخم يسير بسرعة في الفضاء، ويقترب تدريجيًا من مدار الأرض، وبأنه سيرتطم بالأرض بعد ستة شهور ليحوّلها إلى كومة رماد.. لو قيل لنا هذا لما تسرّب إلينا الخوف، لأن في أعماقنا نوعًا من الاطمئنان والإيمان بأن الوقت لم يحن لفناء البشرية التي لم يمض طويلاً على تفتّح براعمها.

وكما أننا لا نؤمن بأن أرضنا ستفنى بفعل سقوط نجم أو كوكب، كذلك لا نصدّق مقولة فناء الأرض بيد

القوى البشرية المخربة.

والآخرون..؟ هل إنهم لا يصدقون أيضا؟

هل هم متفائلون أيضا بمستقبل الأرض والإنسان والحياة والمدنية والسعادة والعدالة والحرية؟!

كلا..

إننا نلاحظ باستمرار علامات الخوف والتشاؤم في خطب وأحاديث ساسة العالم بالنسبة إلى مستقبل البشرية والحضارة.

ولو أهملنا تعاليم الدين وإيماننا بالإمداد الغيبي، ولاحظنا المسألة على أساس العلل والأسباب الظاهرية، لوافقناهم في التشاؤم، وجعلنا الحقّ في جانبهم.

لماذا لا يتشاءمون؟!

أيّ تفاؤل في دنيا يقرّر مصيرَها ضغط زرّ يؤدي إلى انطلاق وسائل الدمار والتخريب؟!

أيّ تفاؤل في عالم يرقد على كتل عظيمة من البارود تنتظر الشرارة كي تتحول إلى حريق عالمي؟!

يقول «رسل» في كتابه «الآمال الجديدة»:

«إن الاحساس بالحيرة والضعف وعدم القدرة يسود في عصرنا الحاضر.

نرى أنفسنا نقتربُ من حرب لا نريدها جميعًا، حرب سوف تفني معظم البشر.

ومع هذا فإننا كأرنب قد لاقى حيّة فمكث في مكانه، ننظر من طرف خفيّ إلى الخطر المحدق بنا دون أن ندري ما نعمل!!

أحاديث القنبلة الذرية والهيدروجينية المخوفة المخربة تنتشر في كلّ مكان، ونتناقل فيما بيننا أخبارَ الجيش الروسي (إن كتاب ـــ الآمال الجديدة ـــ قد كتب يوم كان الغرب مرعوبًا من الروس، أما الآن فقد برزت الصين لتُرعب المعسكرين كليهما)، وأخبارَ القحط والتكالب والوحشية.

في الوقت الذي نقف فيه نحن أمام هذه المظاهر مذهولين مذعورين، فإننا لم نعد قادرين على اتخاذ موقف حازم من هذه المأساة».

وهل البشر قادرون على اتخاذ مثل هذا الموقف؟!

هو يقول أيضا:

«إن مدة ظهور الإنسان طويلة بالنسبة إلى عصر التاريخ، لكنها قصيرة بالنسبة إلى العصور الجيولوجية.

يقال إن الإنسان قد ظهر إلى الوجود قبل مليون سنة، ويذهب البعض ومنهم ــ أنشتاين ــ إلى أن الإنسان قد اجتاز فترته الحياتية، وسيستطيع خلال سنين معدودة، بمعونة تقدّمه العلمي الهائل، أن يفني نفسه».

لو حكمنا على الأمور من خلال الأسباب والظواهر المادية لما حكمنا عليها حقًا بغير هذا النوع من التشاؤم. وهذه النظرة السلبية لا يمكن أن تتبدل إلى نظرة إيجابية متفائلة إلا عن طريق إيمان روحي، إيمان بأن الإنسانية تنتظر في مستقبل أيامها حياة الرفاه والسعادة والأمن والعدل.

لو أننا قبلنا صورة التشاؤم القاتمة، فإن حياة الإنسانية ستكون مضحكة حقًا.. إنها تشبه حياة ذلك الطفل الذي ما إن استطاع حمل السكين حتى أسرع إلى الانتحار بغرس السكين في بطنه.

يقال: إن عمر الأرض أربعون مليار سنة، وأن عمر الإنسان على هذا الكوكب يقرب من مليون سنة.

ويقال أيضا: لو افترضنا أن عمر الأرض سنة واحدة، فإن ثمانية أشهر مضت من هذا العمر دون أن يوجد على ظهر الأرض أي أثر للحياة.

وفي حدود الشهر التاسع بدأ ظهور الحياة بشكل فايروسات ذات خلية واحدة.

في الأسبوع الثاني من الشهر الأخير ظهرت الحيوانات اللبنية، وفي الربع الأخير من الساعة الأخيرة للسنة ظهر الإنسان.

والفترة التي خرج فيها الإنسان من حياته المتوحّشة وحياة الغابات والكهوف هي آخر ستين ثانية من هذه السنة. وفي هذه الثواني الستين ظهر استعداد الإنسان في الاستفادة من عقله في تسخير مظاهر الطبيعة، وفي بناء حضارته ومدنيته. وفي هذه الثواني الستين أثبت الإنسان جدارته بتحمل أعباء خلافة الله في الأرض.

ولو قيل الآن إن الإنسان بمهارته العلمية الفائقة سيفني

نفسه عاجلاً، و لم يتبق من زواله سوى بضع أقـــدام مـــن مسيرته. لو قيل هذا، فإنه لا يعني سوى أن مسألة خلـــق الإنسان ليست إلا عبثًا لا معنى لها.

نعم، إنّ نفرًا من الماديين يستطيع أن يزعم هذا، لكن الفرد الذي تربّى في المدرسة الإلهية لا يمكن أن يذهب إلى هذا التفكير.. إنه يقول: لا يمكن للعالم أن يفنى بيد نفر من المجانين. إنه يؤمن بالخطر المحدق بالعالم، ولكنه يؤمن أيضًا بأن تجربة الإنقاذ التي تفضّل بها الله على البشرية ســـوف تتكرر، وسوف تمتدّ يد الغيب لتبعث المنجي والمصلح كما فعلت مِنْ قبل.

الإنسان الإلهي يرى: أن العالم لم يُخلق عبثًا، ويسخَرُ مِنْ مقولة الماديين حول فناء الإنسان التي يصـــدق عليهـــا المثل العربي:

«ما أدري أسلّم أم ودّع».

فناء البشرية في عصرنا الراهن مخالف لحكمة الله:

إذ مقتضى الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية

كلا.. إن عمر الأرض لم ينتـــه بعـــد، إنـــه في أول

مراحله.

البشرية تنتظر دولة عالمية قائمة على أساس العدل والخير والسعادة والأمن والرفاه.

سوف يصل اليوم الموعود وتُشرق الأرض بنور ربها وسيكون ذلك:

«إذا قام القائم.. وحكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعًا لصدقته ولا برّه، وهو قوله تعالى: والعاقبة للمتقين».

بدل أن نكون سلبيين متشائمين، بدل أن نجلس لنعدّ الأيام المتبقية من عمر البشرية، بدل كلّ هذا، علينا أن نتطلّع إلى إطلالة فجر النصر من وراء كل الخطوب، فالشرارة لا تنير إلا في الظلمة.

يشير الإمام علي إلى ظهور المهدي فيقول:

« حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِياً

نَوَاجِذُهَا[١]، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا[٢]، حُلْواً رَضَاعُهَا[٣]، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا[٤]. أَلَا وَ فِي غَدٍ وَسَيَأْتِي

غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا[٥] وَ تُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا[٦]، وَ تُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ وَ يُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ[٧]» .

الإمام علي يتطلع إلى غد عبوس مكفهرّ، ولكنه يبشر بطلوع فجر النصر من وراء كل تلكم الظلمات.

والقرآن الكريم يقول:

١- النواجذ: أقصى الأضراس أو الأنياب، كناية عن شدة احتدام الحرب .

٢- الأخلاف، جمع خلف: الضرع، كناية عن غزارة مافيها من الشر.

٣- حلوًا رضاعها: للمظلومين والمستضعفين .

٤- علقمًا عاقبتها: للظالمين .

٥- إذا انتهت الحرب حاسب الوالي القائم كلّ عامل من عمال السوء على مساوئ أعمالهم، وإنما كان القائم من غيرها لأنه بريء من جرمها .

٦- أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

٧- أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

نعم. هذه هي الفلسفة العظمى في مسألة ظهور المهدي.

إنها وإن كانت تنذر بأزمات عظام.. لكنها تبشر بالسعادة وانتصار الحق والعدالة بعد هذه الأزمات.

وهذا هو أمل الإنسانية الكبير..

أللهم إنا نرغبُ إليك في دولة كريمة

تعزّ بها الإسلام وأهله.. وتذلّ بها النفاق وأهله..

وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك..

وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

العناوين